

تاريخ الإرسال (2017-04-28). تاريخ قبول النشر (2017-05-24)

أ. جَنّار تيسير وهّود الصّوّس^{1*}

¹ وزارة التربية والتعليم - الخليل - فلسطين

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: rawan.soos@gmail.com

المتنبّي وأزمة الشاعر المثقّف

الملخص:

يتناول هذا البحث أبرز الأزمات التي واجهت المتنبّي، وشكلت نقطة تحوّل في مسيرة حياته، وذلك من خلال الوقوف على رصد الأشعار التي عنيت بهذا الجانب من حياة المثقّف في العصر العباسي.

وقد اختارت الباحثة المنهج الوصفي الاستقرائي في دراستها للنصوص الشعرية، وذلك باستقراء نماذج شعرية تجلت فيها تلك الأزمات التي تمثلت في أزمة الأخلاق وأزمة السجن والاعتراب وأزمة العروبة.

كلمات مفتاحية: شعر عبّاسي، المتنبّي.

Al-Mutanaby and the crisis of the educated poet¹

Abstract

This study deals with the most prominent crises Al- educated " encountered during the Abbasid era. It was considered Mutanaby "The the turning point in his life via documenting the relevant poems. The researcher conducted the inductive approach in her poetry study. The researcher studied a number of poems where the crisis of morals, imprisonment, alienation and Arabism was obviously noticeable. I noticed that Al-Mutanaby was weak and alien during his life, but he didn't surrender .On the contrary, he accepted the challenge and proved that life is meaningless unless you have dignity and pride regardless of its hard work or death will become a better choice instead.

Keywords: Abbasid poetry , Al-Mutanabi

المقدمة:

يعد المتنبي⁽¹⁾ أحد الشعراء القلائل الذين ارتبط فنهم بحياتهم ارتباطاً وثيقاً، فحياته وفنه لا فاصل بينهما، بل إن حياته أشبه برواية يمثل فصولها فنان عظيم على مسرح الوجود، وهو أيضاً أحد الشعراء الذين اضطربت بهم الحياة، فاضطربت نفوسهم تبعاً لاضطرابها وكانت خلجات نفسه وذبذبات روحه صدى وتجاوباً لحياة مليئة بالحزن والفرح، وبالآلم والأمل ناظراً إلى المجتمع من خلال حياته الخاصة وتجاريه، فكانت حياته صراعاً ونضالاً ومعاناة منذ نعومة أظفاره في الكوفة إلى أن لقي مصرعه كان حركة لا تعرف السكون ونشاطاً لا يدب إليه الخمول فاستمد من الفشل عزيمة، ومن الإخفاق طموحاً، وبين الفشل والنجاح كانت نفسه أبداً حائمة لا تستقر ولا تهدأ يحلق أحياناً إلى أعلى القمم، وتحط الحياة به تارة إلى الأعماق.

فمثلت سيرته في اضطرابها وتمزقها صورة لما شاع في عصره من اختلال وقلق في المقاييس الاجتماعية والمثل، وحيرة الإنسان بنفسه ومصيره في بيئة عبثت بها الفوضى، وانتهكت فيها الحرمات، واشتدت الازدواجية في الشخصية البشرية حتى أصبح العيش فيها يتعذر ويستحيل على رجل لم تخمد في نفسه جذوة المثالية، فعانى من أزمة المثقف في التعامل مع كل ما يستجد من عوامل وأحداث واكبها في عصره، ومن هنا ارتأيت أن أقف على مفهوم المثقف أولاً، ومحاولة استنتاج العلاقة التي تربط بين هذا المثقف والسلطة السياسية، والدور الذي يقوم به في التعبير عن أبرز التخديبات الداخلية والخارجية التي واجهته وتحليل الصعوبات والمشاكل التي اعترضت هذا المثقف عند اصطدامه بالسلطة، وخاصة عندما يتمرّد ويثور ضد بعض المواقف، والقرارات السياسية التي تمثل أغلبها في شعوره بالاغتراب نتيجة أزمة السجن التي تعرّض لها وأزمة الأخلاق وأزمة العروبة .

أولاً مفهوم المثقف:

وردت كلمة " المثقف " في سياق الدلالة على الفاعلية، حين كان التثقيف حرفة من يحسن إقامة اعوجاج القناة⁽²⁾، من خلال " الثقافة " وهي: " حديدة تكون مع القوأس والرماح يقوم بها الشيء المعوج، والعدد أنقفة، والجمع ثقف"⁽³⁾، أو خشبية تسوى بها الرماح⁽⁴⁾ وغذا " المثقف " اسم مفعول يدلّ على أجود الرماح،⁽⁵⁾ وكذا السيوف⁽⁶⁾ وقد أتى عمرو بن كلثوم على ذكر السهام والرماح في معلقته قائلاً⁽⁷⁾:

(1) هو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد، وقيل أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبار الجعفي الكندي الكوفي، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلّة تسمى كندة فنسب إليها، وليس هو من قبيلة كندة، بل جعفي القبيلة، وكان والد المتنبي يعرف بعبدان أو عبيدان السقاء، يسقي الماء لأهل المحلّة، وكان المتنبي يختلف إلى الوراقين ليفيد من كتبهم وقد تميّز منذ الطفولة بالذكاء وقوة الحفظ، وأكثر المقام بالبادية؛ لاقتباس اللغة، وقيل قتل يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة هجرية، انظر: ترجمة: الثعالبي، بتيمة الذهر (90/1) البغدادي، تاريخ بغداد (102/4)، الصفدي، الوافي بالوفيات (336/6) ابن خلكان وفيات الأعيان، (120/1) ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة (340/3) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب (13/3) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة (ثقف) وانظر: الجوهري، أبو نصر اسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية مادة (ثقف)

(3) أبو منصور الأزهرى، محمد بن أحمد الهروي (ت. 37هـ - 980م)، تهذيب اللغة (ج9/ 81)

(4) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة (ثقف)

(5) انظر: أبو علي القالي، اسماعيل بن (القاسم البغدادي، الأمالي في لغة العرب (ج155/1)

(6) انظر: أبو منصور الأزهرى، تهذيب اللغة، (ج2 150/12)

(7) عمرو بن كلثوم، الديوان (ص79-80)

إذا عصّ الثّفاف بها اشمأزت
عشوزنة إذا انقلبت أرنّت

وولّتهم عشوزنة زيوننا
تشجّ قفا المثقف والجبيننا

ولا نزال نجد في صدى الأصل الثلاثي (ثقف)، رسوخ العلوّ في تصدّد السمو على قدر من هيبة التشخيص، وجمال كلمة الموقف وجميعها تأتلف في بيان النقد الفاحص والمّحيص الناجز ينبض الحكمة التي تخالج المثقف في لحظات ارتقائه بالمجتمع إلى عالم المثال، وحين نعد إلى تحديد مفهوم المثقف اصطلاحاً لا نستطيع تجاهل التعريفات التي أوردها العديد من الكتاب والمهتمين بقضية المثقف ودوره في المجتمع، إن هذا المفهوم هو من بين المفاهيم الحديثة النشأة، ولعل أول تعريف نجده تعرّض لمفهوم المثقف بشكل واضح ومحدد هو تعريف (أنطونيو غرامشي 1891م - 1937) في كتابه (دفاتر السّجن) حيث ميّز بين المثقف التقليدي، وهو الذي يواصل فعل الأشياء نفسها من جيل إلى جيل مثل المدرس والكاهن والموظف⁽⁸⁾، والمثقف العضوي، وهو صاحب العقل والمفكر المرتبط بصورة مباشرة بالطبقات أو المشاريع ذات المصالح المحددة، والتي توظف المثقف لتنظيم مصالحها، أو في إحكام السيطرة والمزيد من السلطة.

وقد عرض (جوليان بندا 1867م - 1956م) في كتابه (خيانة الاكليروس). لتعريف المثقفين بأنهم تلك الفئة القليلة العدد من الفلاسفة والموهوبين المتفوقين الذين يمثلون ضمير البشرية، ويسهرون على الحفاظ على القيم المطلقة كالعدالة والحقيقة والعقل مثل سقراط والمسيح وفولتير⁽⁹⁾

والمثقف حسب -ادوارد سعيد- فرد منح قدره على تمثيل رسالة أو وجهة نظر، أو موقف، أو رأي وتجسيدها والنطق بها أمام جمهور معين.⁽¹⁰⁾

وقد اختزل خالد الكركي أبعاد المصطلح، في تركيز فائق، مفاده أن المثقفين هم "عيون الناس وشهادتهم على زمنهم ووعيمهم بحاضرها ورؤاهم المستقبلية".⁽¹¹⁾

وتوقف نعيم اليافي عند حدود المصطلح، ليعرف (المثقف) بأنه: "الفرد العضوي الوظيفي الناشر للوعي، والمتطلع إلى التغيير، أو هو قائد هذا التغيير إنه النموذج المنخرط بقضايا أمته، والملتحم والمعبر عنها وعن وجدانها وأحلامها، الذي يعيش دائماً وأبداً بقيمه ومثله -تتظيراً وتطبيقاً- فوق محور الكون والأشياء، على حد سيف، حد التمرد والرفض".⁽¹²⁾

ويلاحظ صلاح جرّار أن مختلف محاولات تعريف المثقف لم تغفل أن يشتمل على سعيه إلى التغيير والتطوير من خلال نقده للواقع، ولذلك اعتبره (سارتر) الضمير الشقي؛ لأنه لا يرتاح للأمر الواقع، ويسعى دائماً إلى تفسيره وتغييره إذ لا يقف عند حدود معرفته وتخصصه العلمي، ولكن أفقه الفكري يمتد ليشمل الاهتمام بكل ما هو وطني وإنساني، كذلك يتميز بالعقل الناقد والقلق، فالحقيقة لديه مفتوحة ومتجددة، وليس مجرد وثوقيات نهائية، ويخلص إلى أن المثقف شخص يمتلك معرفة واسعة يترجمها إلى سلوك وممارسة تهدف إلى التغيير والتطوير وخدمة المجتمع، ولذلك لا بدّ أن يكون في سلوكه ممثلاً ونموذجاً للناس، ولا بد أن يكون صاحب رؤية وموقف من الأمور تميزه عن غير المثقف.⁽¹³⁾

(8) سعيد ادوارد، صور المثقف -محاضرات ريث سنة (1993م)، ص 22

(9) نفسه، (ص 22)

(10) نفسه، (ص 23)

(11) الكركي، خالد، أوراق عربية، (ص 296)

(12) مرايا المتخالف -مقاربات نقدية في الفكر العربي المعاصر، ط1، حلب، مركز الإنماء الحضاري (ص 43).

(13) جرّار، صلاح، المثقف والتغيير - قراءات في المشهد (الثقافي المعاصر)، ص 13-15

وأول هذا المفهوم يمكن أن ينطبق على المثقف في كافة العصور، ومن هنا أيضاً تكون الأزمة، فالعلم والمعرفة يتيحان للإنسان الوعي بالواقع وحقيقة هذا الواقع، ولما كان المثقف صاحب رؤية حضارية ومثال يتوخاه فقد لا يكون الواقع منسجماً مع تطلعاته لذلك فإن صاحب الوعي بعلمه ومعرفته يرى واقعه الفردي والاجتماعي والقومي وربما الإنساني دون ما يتوخاه أو يتمناه، كما كان هذا الواقع من القوة بحيث لا يستطيع الفرد أن يصنع إزاءه شيئاً وهنا يجد المثقف نفسه أمام ثلاثة خيارات: إما أن يحاول أن ينسجم مع هذا الواقع ويتصالح معه ويحاول أن يتصدى له تصدياً مباشراً ويعمل على تغييره بالفعل والقول، أما الخيار الثالث فهو أن يقف المثقف من واقعه موقف الوعي المدرك لحجم التحديات وضخامة المعوق، وعظم القضايا التي يواجهها.

وفي الوقت نفسه فإن هذا المثقف الوعي يدرك ضآلة إمكاناته الفردية واستحالة ما طمح إليه من تغيير في المجتمع أو الإنسان فيختار فكرياً مواصفاته وقيمه، ويأخذ هذا الرفض عند المثقف شكل تجليات فنية كما هو الحال عند بعض الكتاب والشعراء، ولعل المتنبي - والذي تدور هذه الدراسة حوله - ينتمي إلى الفئة الثالثة.

فهو الذي فجر في نفسه هذه النقمة العارمة وهذا الاستخفاف الشديد بالناس وبالحكام في آن معاً، وهو الذي قاد الأمراء والملوك والكبراء إلى أن يخطبوا وده، وأن يحرصوا على استقدامه إلى مجالسهم استكفاً لحدته ونقمتهم واسترضاء له، وطمعاً في مدائحه، ليخلد نكرهم في نشيده المعجز، وهو أيضاً الذي قاد الشاعر إلى حنقه وقتله، فالمتنبي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري الذي شهد ضعف سلطة الخلافة العباسية، وهو أمر نجم عنه نشوء إمارات كثيرة على حواشيتها، أشهرها الإمارة البويهية الدليمة الإمامية المذهب في فارس والعراق، والإمارة الأحمديّة التركية السنية في مصر ومعظم بلاد الشام، والإمارة الحمدانية التغلبيّة العربيّة الإمامية غير المغالية في حلب ومنبج وأنطاكية والموصل، وكان القرامطة العلويون المنحرفون قد أنشأوا لهم كياناً دموياً في البحرين إذ كانوا يغيرون على مدن العراق والشام، ويعترضون قوافل الحجاج، ويقتلون بلا رحمة، ويأسرون ويسبون من لم يكن على مذهبهم حتى لو كانوا شيعة، بل إنهم نهبوا الحجيج في مكة، ونقلوا الحجر الأسود إلى البحرين، وظل في حوزتهم زهاء عشرين عاماً (14).

ثانياً: المتنبي وأزمة المثقف :

يعدّ المتنبي أحد شعراء العربيّة، كان وما زال شخصيّة جدليّة اختلف النقاد والدّارسون حولها، فمنهم من رآه إنساناً عظيماً، وشاعراً مُفلقاً، وحكيماً بليغاً، ومنهم من رآه منطوقاً، ومتهوراً، ومغروراً، ومن هنا كان لا بدّ من الوقوف على بعض الأبعاد التي أثّرت في حياته وانعكست على شعره، ومنها:

1. أولاً: البعد الاجتماعي والسياسي فقد تعرّضت الدولة العبّاسيّة إلى تحولات خطيرة شملت جميع مفاصلها، وانتشرت بشكل كبير على الصّعد كافّة) السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة والفكرية والدينيّة) أدى إلى ضعف الدولة بعد قوتها وازدهارها، وازدياد عدد المتمرّدين والخارجين عليها، وكثرت الاغتيالات السياسيّة، وكثرت تغيب المناصب الوزارية والإدارية، وتعمّقت الخلافات والانشقاقات الفكرية والفلسفيّة، وفي ظلّ تلك الظروف نشأ المتنبي فوجد الأمة العربيّة الإسلاميّة ضعيفة ممرّقة فكان عصره " عصر شكّ واضطراب استمرّ فيه النزاع بين الطوائف والمذاهب، وضعفت فيه العقيدة، وساور الشكّ النفوس، وطغى على العقائد" (15)

(14) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج 61/8)

(15) أدهم، علي، هل كان المتنبي متديناً (مقال) ضمن كتاب: أبو الطيّب المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس، (ص 93)

وأحاطت الأمة العربية المؤامرات والدسائس حتى تحولت حياتهم إلى " حياة ممزوجة بالدم بعيدة عن الهدوء والسكينة، مملوءة بالقلق والاضطراب كلها نزاع وكلها غلاب" (16)، فعاش المتنبي نتيجة لذلك حياة الغربة والاعتراب فلم يستقر في بلاد ولم ينعم بالهدوء والسكينة متأثراً بظروف الدولة العباسية التي مرّ ذكرها، وظهرت آثار تلك الغربة في شعره كقوله (17):

وحيث من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

ومن الثابت تاريخياً أن ثمة علاقة بين الحياة السياسية والاجتماعية حيث إن كليهما يؤثر في الآخر، فالحياة السياسية بأحداثها تؤثر في الحياة الاجتماعية سلباً أو إيجاباً، كما أن الأوضاع الاجتماعية تؤثر في الحياة السياسية، فقد كان المجتمع العباسي موزعاً على " ثلاث طبقات أساسية: طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والولاة وما يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة، ورؤوس التجار، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش، وموظفي الدواوين، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزّراع وأصحاب الحرف" (18)، فلم تكن أموال الدولة موزعة توزيعاً متقارباً، ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقاً طفيفة، وإنما كانت هناك هوات سحيقة بين الطبقات فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلفاء والأمراء (19) إلى جانب ذلك فقد حبلت بطون العباسيين بالمفاسد والخطايا التي ارتكبوها بحق الجماهير الكادحة والفئات المسحوقة من المواطنين، وبالتالي فقد أحاطت السلطة العباسية نفسها كغيرها من السلطات بمجموعة من العلماء والادباء والفقهائ، فكان بلاط الخليفة دائرة معارف عامة يجتمع فيها الشاعر الى جانب الشاعر، والفقيه إلى جاني المتكلم، فيحققون معاً تكاملاً معرفياً للسلطة يطبع في أذهان العامة صورتها الظاهرة وهي صورة السلطة المثقفة، ومن هنا فقد أحسّ المتنبي بمدى الظلم الواقع على فئة الفقراء كونه عانى من قسوة الحياة وضنك العيش فثار محاولاً تغيير هذا الواقع بقوله: (20)

إذا لم تجد ما يبتئز الفقير قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتئز العمرا
هما خلتان ثروة أو منية لعلك أن تبقي بواحدة ذكرا

فاتخذت ثورته ضدّ الوضع الاجتماعي أبعاداً كثيرة، فالتناقض الخطير الذي يعيشه المجتمع، والوضع المؤلم الذي تتردى فيه الأمة لا ينعف فيه التدمير والشكوى، وإنما هو في حاجة إلى الثورة والتغيير والموت في سبيل مثل هذه الأهداف خير من الحياة في جبن ومدلّة، فيقول: (21)

إلى أيّ حين أنت في زيّ محرم وحتّى متى في شقوة وإلى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرّما تمت وتقاسي الذلّ غير مكرّم

(16) صبري، شفيق، حياة المتنبي ممزوجة بالدم (مقال) ضمن كتاب: أبو الطيب المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس، (ص 42)

(17) الطباع، عمر فاروق، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 123)

(18) ضيف، شوقي، العصر العباسي الثاني، (ص 53)

(19) نفسه، (ص 54)

(20) الطباع، عمر فاروق، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، (ص 87)

(21) نفسه، (ص 43)

وكأن المتنبي كان يحس أن الزمن يغدو السير دون أن يستطيع تحقيق شيء من مطامحه، ودون أن يبذل أو يغير من الأمر شيئاً، فإذا به يثور على نفسه التي تلقي الشعر أمام أناس لا يستحقونه فيشغلها ذلك عن طلب المعالي، ونحس بنفسيته القلقة المعذبة وهي تشعر بأن الشباب أخذ يولّي وأن الأيام التي مرّت لن تعود، وأن الشيوخ والعجز عرفا طريقهما إليه، فيقول: (22)

إلى كم ذا التّخلف والتّوالي وكم هذا التّمادي في التّمادي
وشغل النّفس عن طلب المعالي ببيع الشّعْر في سوق الكساد
وما ماضي الشّباب بمسّترد ولا يوم يمرّ بمسّتعاد

ثانياً: البعد النفسي: فلقد تغنى المتنبي منذ صباه بإننيته، وظلت بذور الفخر تنمو في حياته وتتضخم شاعريته، وهو على كثرة فخره بنفسه لم يخصّ قصيدة واحدة لهذا الموضوع، وإنما جاء فخره في الأغراض الأخرى كالمديح والرّثاء ونجده يقم نفسه في القصائد جميعها، ويزج نفسه بها حتى باتت تلك عادة معروفة عند المتنبي، فيقول: (23)

أنا ابن اللّقاء أنا ابن السّخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطّعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي أنا ابن السّروج أنا ابن الرّعان

فنفس المتنبي عظيمة، لها من الحياة موقف وطموح لا يعرف غاية ولا تقنع بالقليل، ولا تكتفي بالتّمني والتّسلية بالأمل دون العمل، فالمتنبي أول شاعر عربي يكسر طوق الاكتفاء والقناعة ويحوّل المحدودية إلى أفق لا يحدّ (24) وإنّ هذا المدح الذاتى مواكب لحالاته النفسية المتقلّبة التي عاشها، ومصوّر لصراعاته مع الإحباط والفشل فنبرة الأنا في الطّور الأوّل من حياته كانت صاحبة لا تضمّنها أرض ولا تحدّها سماء ولا يلجمها عقل. (25)

إنّ مغالاة المتنبي في مدح نفسه دفعت بعضهم كابن سكرة إلى اتّهامه ببعض العقد النفسية فقالوا إن الإنسان الذي يشعر بنقص ما جسدياً أو مادياً أو اجتماعياً يحاول أن يعوّض ذلك النّقص بشيء ما. (26)، وإذا أردنا أن نكون منصفين فعلينا ألاّ نستغرب هذا من إنسان ظهرت عليه النّجاجة منذ الصّغر، فقد نظم الشّعْر وهو في الكتّاب.

فالمتنبي وإن كان من أسرة فقيرة، وإن طعنه بعضهم في نسبه إلاّ أنّه استطاع أن يثبت نفسه على مسرح الحياة الأدبية دافعا لتعظيم أناه، فشعره بمثابة السلاح الذي يجابه به العدو، وهو السلاح الذي يستقرّ به كلّ من هم حوله ممن عاينوه بفقره وانحدار أصله، ومن هنا فقد أحسّ بظلم المجتمع له وبحسده، فكيف لابن سقاء أن ينال ما ناله من الشّهرة؛ إذ عویر بشيء لم يكن له فيه يد أحسّ به بين أقاربه، وفي أزقة كندة وحضرموت وفي الكتّاب وعند الوراقين (27)، فمعايرة النّاس للمتنبي بأبيه ساهمت في إبراز الأنا المتضخّمة لديه وهذه ردة فعل طبيعيّة لإنسان عانى من التّجريح والتّحقير، فالمتنبي استحوذ على أعلى الدّرجات فما على النّاس وأصبح لا يتّقي عظيماً، ولا يخاف أحداً، وأبعد من ذلك فالجميع محتقر في نظره كشعرة في مفرقه، فيقول: (28)

(22) نفسه، (ص164)

(23) نفسه، (ص65)

(24) أدونيس، أحمد سعيد، مقدّمة الشّعْر العربي، (ص57)

(25) سلطان، منير، الصّورة الفنّية في شعر المتنبي (التّشبيه)، (ص218)

(26) عارف الحسن، نهى، المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية، (ص38)

(27) خفاجي، هادي، سنوات ضائعة من حياة المتنبي، (ص362)

(28) الطّباع، عمر فاروق، العرف الطّيب في شرح ديوان أبي الطّيب، (ص79)

أي محــــلّ ارتقيــــي
وكلّ ما قد خلق الل
محتقــــر في همّتي
أي عظمــــم أتقيــــي
ــــه وما لم يخلق
كشــــعرة في مفرقي

فالغرق في مدح الذات سمة معروفة لدى الشاعر، ولكن ما تبرير هذا الاغراق في المدح والشعور بالعلو؟ أهو إحساس الشاعر بالتميّز ممّا أسهم في تكريس تعاطف الأنا حتّى المغالاة؟ أم إحساسه بنقص النسب الأمر الذي دفع به للجوء إلى الأنا المتعالية لتعويض النقص؟

إنّ النزوع إلى التّعالي والتّسامي متجذّر في ذات المنتبي وهو مقوم من مقومات شخصيته بما استشعره في تكوينه وطبيعته من إمكانات أكسبته اعتداداً وثقة بالنفس وتعالياً على الآخرين⁽²⁹⁾، فانطلق من ذاته الفردية إلى الذات الجماعية يتغنّى بأحداث البيئة والعصر، فعاش في صراع دائم بين الواقع والمثال، وكان لحياته المضطربة أثر كبير في توجيه عاطفته، فأخذ يبحث في داخل نفسه وينقبّ في أعماقه ساعياً نحو الأمثل، ومن النّجاح والفشل، ومن الأمل واليأس، ومن الحزن والسرور انبثق لديه الفنّ فكان صورة لنفسه المضطربة الّتي لاتستقرّ على حال فكان طبيعياً أن تعكس حالة المنتبي النّفسيّة على شعره، فتظهر حياته في فنّه مضطربة متشعبة. (30)

ثالثاً: البعد الثقافي: على الرغم من حالة الانقسام السياسي والانهيار الاقتصادي والانحلال الاجتماعي الذي ساد في العصر العباسي، فقد شهد هذا العصر نهضة فكرية وأدبية أعطت الحضارة الإسلامية رفعة وسمواً، ولعلّ من أبرز العوامل التي ساهمت في تلك الحضارة عناية الخلفاء والوزراء بالشعراء والأدباء والاحتفاء بهم في مجالسهم والإغداق عليهم، وكان المنتبي من بين أولئك الشعراء المثقفين الذين قرأوا الكثير وأطلعوا على أغلب الثقافات العالمية المؤثرة المحيطة بالعالم العربي والتي انتشرت في ظلّ حركة الترجمة والاحتكاك الحضاريّ وقد " دخلت على لغة الشعر الألفاظ اليونانية والفارسية لاحتكاك اللسان العربيّ بالألسنة الأعجمية كما تسلّلت بعض الألفاظ الفلسفية والعلمية والدينية". (31) وتعدّ الكوفة - موطن نشأة الشاعر - من أهمّ المؤثرات اللغوية والثقافية التي تركت أثرها في شعر المنتبي، فقد نشأ في وسط ديني علويّ وألحقه والده بإحدى المدارس العلوية" وبذلك اتّصل مباشرة بتعاليم الشيعة" (32) إذ وفر له التحاقه بالمدارس العلوية بيئة دينية شيعية تعلّم أصولها، وانتقلت أغلب مبادئها إلى نفسه فسيطر عليه الشعور بالفخر والاعتداد بالنفس، وتسامي الذات حتّى رأى الجميع صغاراً في عينه، إيماناً منه بنفسه وبقيّيته وبشهره كقوله: (33)

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه
فما أحد فوقي وما أحد مثلي

أضف إلى ذلك حدة ذكائه، وسرعة حفظه التي عرف بها، فقد أقبل بشغف "على مختلف الثقافات في عصره يعبّ منها وينهلّ من ينابيعها" (34)

(29) إبراهيم، نوال، المتوقّع واللامتوقّع في شعر أبي الطيّب، (ص 53)

(30) طاليس، أرسطو، الشعر، (ص 68)

(31) ضيف، شوقي، الفنّ ومذاهبه في الشعر العربيّ، (ص 303)

(32) أدونيس، الثابت والمنحول تأصيل الأصول، (ج 2/ 104)

(33) الطباع، عمر فاروق، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 113)

(34) نافع، عبد الفتاح صالح، لغة الحبّ في شعر المنتبي، (ص 23)

ومن هنا يبدو أن أولى الأزمات التي واجهها كانت أزمة أخلاق فأخذ يسجل موقفه مما عليه الناس من أخلاق وتقاليد وأعراف في ظل المغاسد والانحلال الذي انتشر في البيئة الاجتماعية وجاء ذلك في صورة آراء واتجاهات عرض لها في مواطن عدّة من شعره، فتراه يتحدث عن غدر الأصدقاء وخيانتهم، ويقرن ذلك بضرورة الحذر من الناس والوقوع في حبالهم، فيقول: (35)

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْئُرُهُ وَلَا يُغْرَكَ مِنْهُمْ تُغْرُ مُبْتَسِمٌ

كما واستشرى النفاق الاجتماعي واستحکم أمره فيهم، ومن الصعب استئصاله، فأصبحت صفاتهم الخداع والمكر والتستر وراء الدين لبلوغ غاياتهم، فيقول: (36)

فَلَمْ أَرِ دَهْمَ إِلَّا خِدَاعًا وَلَمْ أَرِ دِينَهمَ إِلَّا نِفَاقًا

كما ويصفهم بالجهل والسفه فيقول (37) :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمِي مَنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي الْكَامِلُ
وَمَنْ لِي بِفَهْمِي أَهِيلَ عَصْرٍ يَدْعِي أَنْ يَحْسِبَ الْهِنْدِي فِيهِمْ بِأَقْلٍ

وتارة يصفهم بصفات مثل اللؤم ونكران الجميل، فيقول (38):

عَلَيْكَ إِذَا هَزَلْتَ مَعَ اللَّيَالِي وَحَوْلِكَ حِينَ تَسْمَنُ فِيهَا هِرَاشٌ

كما ويصور حال الشباب الذي انقلب إلى لهو وسكر، وتحول الشيب إلى هم وألم ، ومن ثم فالحياة في حقيقتها ليست سوى موتٍ دائم، فيقول (39) :

إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السَّكْرَ وَالشَّيْبَ بَ هَمًّا فَالْحَيَاةُ هِيَ الْجَمَامُ

كما عانى المتنبي في معاملة من لا يوافقون طبعه أشد المعاناة ولا أدل على ذلك من قوله: (40)

وَمَنْ نَكَدَ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بَدٌّ

ويقول في سخط شديد على أهل عصره الصغار الهمم القاعدين عن بلوغ المجد في قصيدة يمدح بها تميمياً، وفيها يعد بأن ينال حقه بالقوة مدعوماً بأنصاره المحنكين، كما يراوح فيها بين الألم والأمل في إمكانات وصوله إلى مبتغاه الذي سماه حقه، فعزا تلك الطموحات التي يحلم بها إلى نفسه، كأنه هو الذي سيقود ثورة يحقق بها تلك المنجزات، فيقول: (41)

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ مِنْ مَشَايِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طَوْلِ مَا التَّمْتَمُوا مُرْدُ
تَقَالِ إِذَا لَاقُوا خِفَافًا إِذَا دُعُوا كَثِيرًا إِذَا شَدَّوْا قَلِيلًا إِذَا عُدُّوا

(35) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص 238)

(36) فسفه، (ص 131)

(37) نفسه، (ص 45)

(38) نفسه، (ص 78)

(39) نفسه، (ص 123)

(40) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (456)

(41) نفسه، (ص 20)

إذا شئت حفت بي على كل سابع رجالاً كأن الموت في فمها شهد
واضح أنه يعد أن يكون على رأس طائفة من الرجال المدججين بالسلاح والمحتكين بالوسائل الذين يستهينون بالموت
ويستعذبون مذاقه في سبيل إدراك حقه غير أن تغييره ب (إذا شئت) يكشف عن واقع يتجافى عن بلوغ تلك الطموحات
العريضة، ولذلك انبرى في قصيدة أخرى يشتم زمانه وأهله وواقعه إذ غدا لا يبصر غير الأوغاد والجناء العمي، وغير
أصحاب الهمم الخائرة، فيقول: (42)

أذم إلي هذا الزمان أهيله وأكرمهم كلباً وأبصرهم عم
فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد على خليلاي دون الناس حزنٌ وعبرة تلج
وأشهدهم فهتد وأشجعهم قرد دموعي بالجنون كأنما
على فقد من أحببت ما لهما فقد جفوني لعيني كل باكية خد

فتراه يستنكر تقاعس الناس وخمولهم وقعودهم عن العمل والسعي والطموح وقبولهم بالذل ولاستكانة، فيقول (43).

إنني نزلت بكذا بين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جوذ الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفي يده من نتنها غود
وهو أمر طبيعي عند رجل كهذا عاش حراً أبيتاً و ناضل من أجل حرية وكرامته، وظل يطلب العلا حتى وصلت به همته
العالية طلب الحكم والولاية، فيقول (44)

عجبت لمن له قد وجد ومن يجد الطريق إلى المعالي
وينبو نبوة القضم الكهام فلا يذر المطى بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنعص القادرين على التمام

فهو يعيد أزمة الأخلاق التي يعيشها العصر إلى المادّة وتكالب الناس عليها، فقد غالوا في حب المال، وأصبح هدفاً
اعتقدوا أنه يوصلهم إلى الزعامة والشهرة، فاصطنعوا المذاهب والطرق وتاجروا بالدين، وسعوا إلى خلق الرئاسات وتحطيم
الدولة وتمزيقها فتراه ينزل غضبه وسخطه على تصارييف الدهر واحواله ويعد الزمان بالثورة، ولو لقي حقه؛ لأن الصمود
في معركة الشرف ونيل الشهادة عنصران يضيئان طريق المرء ويسموان به إلى الأعلى، فيقول (45)

أذاقني زمني بلوى شرفت بها لو ذاقها لبكي ما عاش وانتحبا
وإن عمرت جعلت الحرب والدة والسّمهري أخاً والمشرفي أباً
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً حتى كأن له في قتله أربا

(42) نفسه، (ص 273)

(43) نفسه، (ص 273)

(44) نفسه، ص (81)

(45) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ص (33)

فالدَّهر نفسه يعجز عن مجابهة الشاعر، وسيلقى رجلاً صلباً قوياً مشربب النَّفس، تتوق نفسه إلى بلوغ المعالي وسيلزم الحرب طوال عمره حتى يدرك مطالبه. ونجد أن مشكلة المثقف الشاعر لم تتجسد فقط مع الدَّهر والنَّاس حين أظهر قلة قدراتهم العقلية وضعفهم، بل امتد الأمر إلى وجود الحساد الذين زادوا في تنغيص عيشه لأنه يجدهم في كل مكان يحل به، إنهم كالمرض العضال الذي لا دواء له، فهو لا يدري علام يحسدونه، أعلى حياته؟ أم على مصائبه؟ ولكن هيهات لهذا الحاسد الأحمق أن يلحق به؛ لأنه فرس أصيل تجاوزه وأطلق خلفه الغبار وهو البرق في سرعته فلا يجاري، يقول⁽⁴⁶⁾

إنني وإن لم تُتْ حاسدي فما
وكيف لا يُحسد امرؤ علم
ويردف قائلاً⁽⁴⁷⁾

فأبلغ حاسدي عليك أني
كبا برق يحاول بي لحاقا
وقوله أيضاً⁽⁴⁸⁾

إذا شاء أن يلهو بحلية أحمق
وما كمد الحساد شيئاً قصده
أراه غباري ثم قال له الحق
ولكنه من يزحم البحر يغرق

فهو لا يقصد هؤلاء النَّاس، وإنما هم الذين يتناولون فيغرقون في بحر فنّه، ومثلهم لقمة سائغة على مائدة المتنبي قادر على كشف معادنتهم ونفسياتهم، فيقول⁽⁴⁹⁾:

إذا ما النَّاس جرَّهم لبيب
فلم أر ودَّهم إلا خداعا
فإنني قد أكلتهم وذاقا
ولم أريهم إلا نفاقا
فهم يحسدونه ولا يدرون أنهم يحسدونه على مصائبه التي تكيه فيقول⁽⁵⁰⁾

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبهُ
إنني نزلت بكذا بين ضيئهم
أنني بما أنا باكٍ منه محسود
عن القرى وعن الترحال محدود

(46)، نفسه (ص 33)

(47) نفسه، (ص 45)

(48) نفسه، (ص 52)

(49) نفسه، (ص 31)

(50) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي، (ص 40).

فبعجباً لأمر حسّاده ما أكثر أنواعه، فهم ليسوا فقط أدياءً ونقاداً بل إنهم عائبون في كل بلد، وفي كل قصر أيضاً يسافر فيجدهم يستقبلونه على بوابات الأوطان، ينظر إلى نفسه فيجدهم من حوله ومن أمامه، ولا بدّ وأن فيه شيئاً يبعث على الحسد والغیظ كالشخصية أو الشاعرية أو الشهرة أو المكانة، ولولا ذلك لما تكاثف حوله الحساد.

"فقد قدرّ للمتنبي أن يكون من أبرز الشعراء العرب الذين تركوا تأثيراً عميقاً فيمن تلاهم من الأدياء، وكان من دواعي ذلك التأثير ظروف حياته الخاصة، وتعصبه للعرب، ونزوعه إلى الثورة والتمرد وتطرف النقد في تناول فنه، ومزايا شعره العديدة. (51)

لكن الشعراء الذين قلّدوا المتنبي، وهم كثر قلّدوه في عباراته وصياغاته، ولكنهم عجزوا عن تقليد صوته في السمة الأساسية لشعريته، فحتى هذا التقليد الناجح ظاهرياً في حالات كثيرة لا يماهي صوت صاحبه بصوت المتنبي. (52)

وهذا ينم عن فريدة سلطته المعرفية التي أثارت متلقيه من كل طبقة⁽⁵³⁾ فقد أحس الشعراء بتفتح شاعريته، ونضج قريحته، وأن كفة الصّراع تميل ناحيته، إذ نال المتنبي حظوة جليلة في بلاط سيف الدولة الذي أحبه وقربه إليه، وجعله شاعره المفضل، ينتقل معه أينما حلّ، فلم يفارقه حتى في المعارك التي كان يخوضها ضدّ المنشقين فأخذوا العهد على أنفسهم بتتبع المتنبي، فاتحدت أهدافهم وتلاحقت مصالحهم وراح كل واحد منهم يشن عليه حرباً هوجاء. (54)

فبدأ الضعف يتسلل إلى نفس المتنبي، ويشعر بالاغتراب إذ وجد نفسه منعزلاً عن مجتمعه يعاني من الغربة التي تعذبه وتزيده كبرياءً وسرطانية الذات الفردية، ولكنها صدمت مبكراً على صخرة الحياة والواقع من حولها، وكانت الصدمة جبارة قوية، فعبر عنها بمزيد من الأسى والسخط على هذه الدنيا. فحاول المتنبي إنقاذ نفسه من مرارة هذا الواقع بالتعالي والشعور بالأنا ليخفف من وطأة إحساسه بالاغتراب الذي أثقل كاهله" كان المتنبي وحيداً وكان واحداً في جهة، ووضع الأمة بكل عناصر فسادها في الجهة الثانية، وكان عليه أن ينقل ذلك الوضع إلى الجهة المعادلة شرسة وقاسية، ولكنها الواقع ولا مناص من مواجهتها ومن يتطلع لذلك لا بدّ أن يفهمه شعور بالرفعة والتميز. (55)

وتعد الأنا من أكثر الألفاظ وروداً في شعر المتنبي، وقد ارتبطت بمختلف الأغراض الشعرية ومرّد ذلك إلى أنه " كان شديد الإحساس بنفسه يرى أنه أفضل الناس وأن مواهبه تداني، ويتألم أشدّ الألم إذا مسّه كلمة أو لم يحصل على ما يريد، إذ هو يرى أنه أهل للتمجيد والكرم"⁽⁵⁶⁾ فلم يكن من سبيل أمام الشاعر إلا إفساح الخطاب لأننا المعرفة والفكر مع إجراء موازنة ضمنية مع الشعراء الآخرين كي يكون أقدر على امتداح الذات، بابتكار المعاني التي لم يسبق إليها، بينما دار الآخرون في فلك ما قيل من معانٍ سابقة وعليه فقد كان الحسد نتيجة حتمية لسبقه المعرفي وتقدمه الشعري، ومنطقة المحتشد بدواعي الابتداع والصّدارة، وهذا الذي ما كان دواؤه سوى الانشغال عن الاشتغال به، إذ به تعيا القلوب والآمال، التي تكمن في إحساسه القوي وشاعريته الفذة التي لا تضاهي فيقول: (57)

أنا السابق الهادي إلى ما أقولهُ
إذ القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يريبنني
أصول ولا للقائلين أصول

(51) العيسى، مصطفى أثر المتنبي في أعلام الشعر الاندلسي، (ص211)

(52) أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر، وسبيقي الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة)، ص (17)

(53) أورنة، سماح عدنان، التلقي الجمالي في النقد العربي القديم، شعر المتنبي نموذجاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين، (ص211)

(54) القلماوي، سهير، هل نبعت المتنبي، جملة الشعر، ع1، ربيع، 1972، القاهرة

(55) الجندي، إنعام، المتنبي والثورة، (ص23)

(56) عوض إبراهيم، لغة المتنبي (دراسة تحليلية)، (ص151)

(57) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص164)

أعادي على ما يوجب الحبّ للفتى
سوى وجع الحساد داو فإنه
وأهدأ والأفكار فيّ تجول
إذا حلّ في قلب فليس يحول
فما كان من المتنبي إلى أن شدّ رواحله، وعزم على الرحيل مستعظماً نفسه، يقلقل سكون الناس وخضوعهم باعثاً فيهم
الهمم، فإذا بالناس يتساءلون عن هذا الذي حرّك سكونهم ماذا يُريد، فيقول (58)

تغرّب لا مستعظماً غير نفسه
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة
ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً
ولا واجداً إلا لمكرمة طعماً
وما تبتغي ما أبتغي جلّ أن يسمى
يقولون لي ما أنت في كلّ بلدة

إنها الحركة الدائمة التي لا تعرف استقراراً، وتأنف المكان وتغادره لتصبح الألفة في الارتحال، وتتبدل علامات الانتماء
حيث أصبح الرحيل انتماء، وظهر ناقته أرضه، فالقلق الفكري واهتياج الأفكار بداخله وأمل تحقيقها أدّى به إلى هذا
الرحيل القلق الذي لا يعرف له وجهة، فيقول: (59)

ألفتُ ترخّلي وجعلتُ أرضي
فما حاولتُ في أرض مُقاماً
فُتودي والغريريّ الجُلالا
ولا أزمعتُ عن أرض زوالا
أوجّهها جنوباً أو شمالاً
على قلق كأنّ الريح تحتي

ولأنّ الفكر هو الذي يحرك الإنسان، ويمتد به الزمان والمكان، فقد عبّر المتنبي عن ذلك بأنّ سكونه لا يعني سكون فكره،
فيقول: (60)

أعادي على ما يوجب الحبّ للفتى
ومن ثمّ فإنّ الفكر الذي يحمله، وعدم قدرة الناس على فهمه أو التعامل معه من أجل تحقّقه أدّى به إلى القطيعة بينه
وبين الناس، فذمّ الناس وذمّ الزمن والدنيا.

فاتخذ من السخرية وسيلة لإيقاظ الضمائر النائمة وحثّ الناس على التنبيه والوعي؛ لأنّ أسلوب السخرية هو إحدى
الوسائل الفنية والنفسية البارعة في محاربة الداء المستشري في مجتمعه ومحاولة فضح عيوبهم، وكشف أساليبهم المطلقة
على رقاب الناس مبرزاً نواياهم العدوانية وخططهم التعسفية، ومن ذلك وصفه لكافور بالكلب ضعة ولؤماً وخسة وسقوطاً
يسيء إلى سراة القوم وعليتهم، والناس تسبّح بحمده لما اتفق له من السلطان، وهو يضطر إلى مدحه قسراً، وأنه ما لم يكن
ليخطر له - ولو على سبيل اللحم - أن صحبته للذهر ستريه مثل هذا العبد حاكماً مطاعاً في مصر، يعبد الأحرار،
ويسود العبيد وأتة سيضطر يوماً إلى مدح عبد أسود يسيء إليه، ولم ينس أن يلوح ساخراً بسواد لونه حين قال (أبو
البيضاء) مع أنّ كنية كافور المعروفة (أبو المسك)، فهو يحقد على كافور بخاصة أنّه عبد يستدله، وهو بالتالي يمثل لنا
اختلال القيم والمقاييس في ذلك العصر، فالإنسان لا يرتفع ويسمو بعلمه وكفاءته بل بقدرته على الاحتيال والاعتصاب،

(58) نفسه، (ص 164)

(59) نفسه، (ص 227)

(60) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 188)

ومن هنا كان استبداد كافور بالمتنبي عنواناً لذلك العصر الذي تناقضت فيه المفاهيم فبدلاً من أن يحكم الحرّ العبيد، نرى العبد يتحكّم بالحرّ، وبدلاً من أن يتحكّم العالم بالأمي الجاهل، نرى الأمي الجاهل يتحكّم بالقول، ويمكن القول إنّ القوة هي التي كانت تسيطر في ذلك العصر على الحق، وبهذا تتعدّى نقمة المتنبي كافور إلى واقع البيئة التي يعايشها، فيقول: (61)

وما كنتُ أحسبني أحيا إلى زمن
ولا توهمتُ أنّ الناس قد فقدوا
وجوعان يأكل من زادي ويمسكني
كـي لا يقال: عظيمُ القدر مقصود

وتشدد نبرة السخرية الموجهة إلى مجتمعه حتى يستهزئ بأولئك الذين يتخذونه من الجبن ذريعة لتبرير ضعفهم، ومواقفهم في الحياة ثم يدعو الجبان أن يخلع نفسه هذا الثوب، وأن يقف قوياً في وجه تحديات العصر، فيقول: (62)

يرى الجبناء أنّ العجز عقلٌ
وكلّ شجاعة في المرء تُغني
وكم من عائب قولاً صحيحاً
ولكن تأخذ الأذان منه

ونراه في موطن آخر يعلن غضبه على الناس، يريد منهم أن يكونوا رجالاً أشداء يسمون إلى المعالي، فإذا هم يعلنون نصرهم على جرد، فيقول ساخراً: (63)

لقد أصبح الجرد المستعير
رماه الكنانيّ والعامريّ
كلا الرّجلين اتلاً قتله
وأيكما كان من خلفه

" وجاءت هذه السخرية سخرية موجعة تضحك وتبكي في آن، ويصف طه حسين هذه الابيات بقوله: " فلن نرى سخرية أذع من هذه السخرية، ولا هجاء أمض من هذا الهجاء، ولن نرى أشدّ من هذا الازدراء للحاضرين من اهل الكوفة المعاصرين له" (64)

فالمتنبي لم يقصد الضحك والإضحاك، وإنما قصد تلك السخرية المخزية التي تقلب الصورة، فكما أنه من العار أن يفاخر الرّجلان في قتل جرد، حيث جعله جرداً فارساً لا يشق له غبار، فنراه يستعظم فعلهما بطريقة كاريكاتورية، لأنهما ظناً أن فعلهما عظيم.

فقد وجد المتنبي في عصره التناقضات كافة، فهناك تفاوت في الطبقات على أساس من الثروة، وعلى أساس من الجنس، وهناك تسلط من الحكّام الذين خضعوا ودلّوا للترك، ولم يعد لهم إلا إرضاء نزواتهم وإشباع شهواتهم وأحس بأنّ التناقض

(61) نفسه ، (ص63)

(62) نفسه، (ص45)

(63) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص229)

(64) حسين طه، مع المتنبي، (ص41)

يستشري في الأمة، وأن كرامة الإنسان تهدر من أجل لقمة العيش، وأن الناس لا يقدرّون إلا من يملك، وفي خضم هذه الأمور انعدمت القيم والمثل وسيطرت المادة على كل شيء، فكانت المتناقضات تتأزر معاً، لتغذي روح المتنبي الساخرة، وتغرس في نفسه سخرية ناقدة شاملة، فقد امتصّت نفسه ما في عصره من تناقضات وفوارق، وأخذت هذه النفس المجرحة تفيض بين حين وآخر حزة هازئة عابثة، تعني تحامق الدهر، وعبث الأقدار التي تحرم المحرومين وتغدق على المتخمين، فكان أن صوّر مشاهداته ومسموعاته تصويراً حياً.

ومن هنا تولدت لديه أزمة العروبة، فكان أن ثار على الحكّام الأعاجم اللاهين العابثين، الذين يستأثرون بخيرات البلاد ويضطهده العباد، والمتنبي لذلك يعد بأن يتصدى لهم، ويطيح برؤوسهم بقدراته وعزيمته وبما يمتلك من أدوات تغيير وقتال، فجاء معجمه الشعري حافلاً بالأفاظ الطعن والسيف والرّمح والضرب والخيل والموت والقتل، وأشباهاها من هذا الحقل الدلالي الحربي العنيف، وبما يتجبر في نفسه من حقد ونقمة على ظرفه التاريخي، ومن فيه من الملوك الخالعين وبخاصة اعتقاده أنّ حال العرب لا يستقيم في ظلّ حاكم أعجمي، فهو يقول في صدر قصيدة مدح بها عربياً من تنوخ، وينعى فيها موات الهمم بقبول الناس سلطة الأعاجم، فيقول: (65)

| | |
|--------------------------|------------------------------|
| أحقّ عافٍ بدمعك الهمم | وأحدثُ شيئاً عهداً بها القدم |
| وإنما الناس بالملوك وما | تقلخُ عربٌ ملوكها عجم |
| بكل أرض وطنئها أمم | ترعى بعبيد كأنها غنم |
| يستخشن الخرز حين يلمسُهُ | وكان يُبيري بظفره القلم |
| إنني وإن لمت حاسدي فما | أنكرُ أنني عقوبةٌ لهم |
| وكيف لا يحسد امرؤ علم | له على كل هامٍ قدم |

فأرض العرب التي يبصرها الشاعر كانت في قبضة أولئك الحكّام الأعاجم وهو ما يفجر في نفسه الحسد والألم والسخرية والتسامي في آن معاً فنراه يدعو الناس إلى عدم الاقتناع بما دون همة المرء وتطلعاته فالموت في سبيل غاية نبيلة وغيرها سيان، وهو أول من يقتحم المعركة ويتحدى التوقع والانطواء، ويدعو إلى التحرر والانطلاق وعلى الرغم من الحوادث المؤلمة التي هزت كيانه إلا أن هذا لا يبعث فيه اليأس الذي يفضي به إلى الرضوخ لواقعه والجنوح إلى الضعف، بل يفجر من هذه النفس المتعبة والمثخنة بالجراح والآلام، الاعتزاز بالنفس ورفضه أن يكون واحداً من بين هؤلاء الضعفاء، إنّه يبعث من هذه الروح الحزينة هذا الأمل الذي يتجسد في هذا الإقدام، ويخلق لنفسه من عالم البؤس والشقاء عالم السعادة، ومن الخيبة الانتصار، فيقول: (66)

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| إذا غامرت في شرفٍ مَرُومٍ | فلا تقنع بما دون النجوم |
| فطعم الموت في أمرٍ صغيرٍ | كطعم الموت في أمرٍ عظيم |
| ستبكي شجوها فرسي ومهري | صفائح دمعها ماء الجسوم |
| قَرين النار ثمّ نشأن فيها | كما نشأ العذارى في النعيم |

فمفهوم الثورة عند المتنبي "تنبني على مبدأ الرّفص لواقع متدهور يريد التّأثر تغييره أو لقيده يحدّ من انطلاقاته، فيعترم تحطيمه، وهو يقوم أيضاً على مثل أعلى يطمع الشاعر في ثورته لتحقيق، يرى فيه استكمالاً لذاته ونهوضاً ببني جنسه،

(65) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص87)

(66) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص229)

وتدعيماً لكيانهم في هذا الوجود ولا يخلو التأثر وسلوكه في إقراره لذلك المبدأ، ونضاله لبلوغ تلك الغاية من تحدّ للعراقيل والحواجز في جرأة وشجاعة⁽⁶⁷⁾.

فيثور المتنبي على هذا الوباء الذي يسري في نفوس أهل عصره داعياً في الناس إلى نفض غبار الجبن عن نفوسهم، والتسلح بسلاح القوة والإقدام فففيهما تكمن عزّة الإنسان وحريته ومن حاد عن هذه الطريق فإنّ مآله الدّل والاحتقار، فيقول: (68)

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلّة فلا تستعدّن الخُسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارة ولا تستجيدن العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تتقى حتى تكون ضواريا

فأمله الوحيد هو نزع الخوف والضعف من القلوب، والاندفاع نحو حمل راية الكفاح والجهر بالحرب في سبيل تحقيق الإنسان لأنه من أراد أن يكون عزيزاً بين الناس، فعليه بالسّيف فهو الحاجز بينه وبين أن يصاب بالدّل والهوان، فالتأثر في وجه غارات العدو والهامي لثغور أمته، والزاد لهجومات الظالمين يكسب رفعة بين أهل مجتمعه.

ولا يفتأ المتنبي يوقظ مجتمعه ويشحنه بالوعي ويحرّك أحاسيسه، ويخاطب ضميره بأسلوب شائق يطفح بالمعاناة الأليمة التي تمزق نفسه لعله يستفيق من سباته العميق، وينبه إلى ضرورة الاحتراز من الوقوع في شرور الدّل، وقد شحن المتنبي نفسه ضد صباه بطلب العزّ والتّرفع والتّعالي إلى أن ينزل منازل تحط من قيمته، وبالتالي تصنّفه في زمرة الضّعفاء والخاملين، فقد شب على مواجهة الضّعف سالكاً طرق الحرّيّة والكرامة يمشي بكبرياء وتؤدة دون أن يخنع ويطاطئ رأسه لأصحاب الحكم والسياسة، فيقول: (69)

وما أنا والخمُرُ وبطيخة سوداء في قشر من الخيزران
يشغلني عنها وعن غيرها توطيني النّفس ليوم الطعان
وكلّ نجلاء لها صائك يخضّب يدي والسنان

فهو يدعو إلى طلب حقّه، ويدفع الناس إلى الصمود في سبيل الوصول إلى غاياتهم؛ لأن تحقيق الغايات لا يتم إلا عن طريق مواصلة طلبهم بقوّة وصبر دون وهن أو ضعف، صرخات غاضبة على الضعف الذي يسري في نفوس أهل عصره، ويرفض بقوّة وإباء هذا الوضع المأساوي، ويريد من قومه الثورة على الخنوع والدّل، فقد خلع المتنبي جلباب الخوف، وعقد العزم على الثورة المسلّحة والسّير في طريق النّضال المستمر؛ لأنها الحافز إلى تحقيق مطالبه والوصول إلى أهدافه؛ لأنّه صاحب قضية ظل ينادي بها من أجل أمته؛ ولأنه الرّافض للقهر والظلم فيقول: (70)

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللّجين وعتق العين
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

" فشعره جاء عبارة عن ثورة رجل سياسي عزيز يرقب ما يحيط به ويطرح الرجل العربي ما يؤمله ويؤمل بلوغه في سطوته وسلوكه وشوكته وكل ما في نفسه من أهداف تحدّها له عربته واعتزازه بها" (71)

(67) الثورة في الفكر العربي المعاصر، سلسلة الدراسات الأدبية، (ص93)

(68)، اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص260)

(69) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص249)

(70) نفسه، (ص132)

كما ويتضح مدى انعكاس بيئة المتنبي في شعره خصوصاً إذا ما علمنا أن القرن الزابع الهجري كان مسرحاً للأحداث الدّموية والمأساوية التي طبعت القرن، حتى تميّز يتحولات سياسيّة كبرى أدّت إلى اضطراب الحالة السياسيّة، فقد كانت بغداد قمة الصّراع الفكري والاجتماعي والسياسي، لكن ما لبث أن دبّت في جسم الخلافة العباسية عوامل الضعف والانحطاط، ومن ذلك ضعف السلطة المركزيّة في الخلافة العباسية وسوء أحوال الطبقة العامّة، وتكدّس الثروة في أي طبقة اجتماعية محدودة العدد، وانتشار الحركات الثورية والنزاعات الاجتماعيّة والرعايات الدينيّة للسلطة المركزيّة.⁽⁷¹⁾

فكان أبو الطيب حاقداً على الخلفاء العرب؛ لأنهم بضعفهم وتخاذلهم وتهالكهم على المال واللذات، أفسحوا المجال أمام التّرك والفرس والدليم والسّلاجقة للتّحكّم في مصير الخلافة العربيّة واللّعب بمصير الخلفاء والمسلمين، فأصبح الحكم الفعلي لأولئك الأعراب المتسلطين بقوتهم الطّامسين للهويّة العربيّة وأما الخلفاء العباسيين فلم يبق لهم سوى الاسم بعد تفریطهم في حقهم السياسي والديني، وهذه فرصة استغلها الأمراء والقادة العسكريون والولاة، ليستقل كل منهم بمنطقة نفوذ خاصة به ليقطعها من جسم الدولة الأم، فتمزقت الدولة بسبب طمع الولاة، وحبّهم للمال والنفوذ،⁽⁷²⁾ وكان هذا الوضع السياسي الممزق يؤلم الأحرار كالمثني الذي غدا مرتحلاً في البلاد باحثاً عن المثال في الحاكميّة.⁽⁷³⁾

وكان المتنبي مدركاً من غير شك أن آراءه وأقواله هذه وأمثالها كثير ستجرّ عليه المصاعب، ولكنه لم يهن بل ظلّ يجهر برأيه هذا في كلّ حين على امتداد رحلة عمره منذ صباه الأول وهو في الكتاب إلى أن قتل علي تفاوت في الحدة والشدة والعنف بحسب الظروف والشخص الذين ارتبطت بينه وبينهم الأسباب فكثرت لهذا حسّاده والنّاقمون عليه، فكان ان سجن وهو دون سن العشرين حين كان في بادية الشام بعد خروجه لأول مرة من العراق، " إذ كان _ كما يقول الثّعالبي _ يدور حبّ الرّياسة في رأسه، ويظهر ما يضمّر من مكامن وسواسه"⁽⁷⁴⁾

أو كما قال معاصره ابن جنّي "وكان قوم وشوا به إلى السلطات في صباه، وتكذبوا عليه، وقالوا له قد انقاد له خلق كثير من العرب وقد عزم على أخذ بلدك، أو حشوة منهن فاعتقله وضيق عليه".⁽⁷⁵⁾

فكان السّجن بمثابة المكان الذي بدا فيه ضعف المتنبي وهو قتل مع وقف التنفيذ؛ لأنه سلب لحرية الإنسان وشخصه، وقد تصاحبه كل مظاهر الموت من حزن وعجز وعدم إمكانية التحقق الإنساني في شخصه وعنفوانه وقد عانى كثيراً من مرارته في غير مرحلة من مراحل حياته، فقال مستعظفاً لإخراجه من السّجن⁽⁷⁶⁾

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أمالك رقي ومَن شأنه | هبأئ اللّجين وعتق العبيد |
| دعوتك عند انقطاع الرّجا | ء والموت مئني كحبل الوريد |
| دعوتك لما براني البلاء | وأوهن رجلي ثقل الحديد |
| وقد كان مشيهما في النّعال | فقد صار مشيهما في القيود |
| وكنت من النّاس في محفل | فها أنا في محفل من قرود |
| تعجّل فيّ وجوب الحدود | وحدي قبيل وجوب السّجود |

(71) انظر: السامرائي، فيصل، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، (59/1)

(72) انظر: الشيخ، حفيفة، معنى المعنى عند أبي الطيب بن السيفيات والكافوريات، (ص58)

(73) انظر: الزهراني، جمعة، الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح _ رسالة ماجستير، (ص97-199)

(74) بيتيمة الدهر، (113/1)

(75) شرح ديوان المتنبي المسمى المفسّر، (م634/2)

(76) اليازجي، ناصيف، ، العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب، (ص68)

ولم يلق صوته أية آذان مصغية، فعاش في غربة مقيبة بين أناس لا ينتمي إليهم ولا ينتمون إليه، كل هذا وهو ما زال حدثاً لا يجوز عليه مثل هذا العقاب، فقال: (77)

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلتُ برّك بي والجوع يرضى الأسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنتُ للموت نفس معترف
لو كان سُكنائي فيك منقصه لم يكن الدّر ساكن الصّدْفِ

فلقد شكل السجن بالنسبة للمتنبّي صراعاً بين الحياة والموت لأنه قد لا يستطيع معه ممارسة طقوس الحياة، وإنما يعيش فيه حياة العذاب والمعاناة والألم والحزن والأسر، صحيح أنه قال هذه القصيدة وهو حدث، إلا أن مشاعر الضعف والعجز بادية عليه لكّنه لا يقلل من اعتزازه بنفسه، ولعل الصورة في البيت الأخير توضّح ذلك، فالسجن لا يقلل من شأنه ولا من مكانته فهو كالدّر لا يقلل من قيمة وجوده في الصّف الذي لا قيمه له مقارنة بقيمة اللؤلؤ، فلقد أذكى هذا السجن في نفس المتنبي الشعور بالتناقض والازدواجية والتمزق، سيشعر في أعماقه أنه أعظم من القوم الذين يتسلطون عليه، لكنه يعجز في الآن ذاته عن إعلان هذا الشعور، أو بالأحرى عن تحقيقه وظلّت أحلامه تتدافع وراء جدران نفسه تذكي في أعماقه حسّ الندم والبراح والهزيمة وهذا الواقع عظيم الأهمية في الدلالة على حقيقة الفخر في شعر أبي الطيّب، فالشعور الداخلي بالتفوق الذي حرّمته المحاذير الخارجية كان يتنفس في شعره فأصبح يحقق في الكلام ما عجز عن تحقيقه الأفعال، لهذا رأينا أن سحابة الاصفرار والقنوط تعشي شعره في أخريات حياته، ويتولاها شعور بالهزال والتشاؤم أضفى على صورة ومعانيه غلاله وجدانية عميقة البث والإيحاء، فيقول: (78)

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها اللـ ه غريب كصالح في ثمود

ثم نراه يتعرّض بعد ذلك بسنوات لمحاولتي اغتيال، كانت الأولى على يد غلمان أبي العشائر حين كمنوا له، فلماً مرّ بهم " ضرب واحد منهم بيده إلى عنان فرسه، فسلب أبو الطيب سيفه فخلاه الرجل...ورمى أحد الغلمان الفرس بسهم فأصابه في نحره، فانترعه أبو الطيب، ثم كثر عليهم، فضرب ادهم فقطع رأسه. (79)

وجرت محاولة الاغتيال الثانية على يد أحد عبيده، فقد سرق هذا العبد أحد أفراسه، غير أنّ المتنبي عاجله بطعنة قتلته قبل أن يقتله هذا العبد، وقتل كلّ من تأمروا معه من أشياعه وفي ذلك يقول: (80)

أعددت للغاديين أسيافا أجددُ منهم يهن أنافا
لا يرحم الله رؤساً لهم أطرن عن هامهن أقحافا
إذا امرؤ راعني بغدرتـه أو ردتـه الغاية التي خافا

(77) نفسه ، (ص 59)

(78) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 64-65)

(79) انظر: عزام، عبد الوهاب، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، (ص 9)

(80) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 128-129)

وظلّ المتنبي مع ذلك لا يكفّ لسانه عن القدح بملوك عصره وازدرائهم وتحقيرهم، وازدراء الناس الذين رضوا أن يسوسهم حكام جبنا، فقال عنهم وعن نفسه في مقايضة مثيرة في صدر قصيدة مدح بها عربياً من عجل، كأنه كان يحرض أولئك الأمراء العرب على الأعاجم أصحاب الإمارات الكبيرة ليسقطوهم، فيقول: (81)

فؤاد ما تُسليه المُدامُ وعُمُرٌ مثلُ ما تهبُّ اللُئامُ
ودهرٌ نأسه ناسٌ صغار وإن كانت لهم جثث ضخامُ
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدنُ الذهب الرغامُ
أرانبٌ غيرَ أنهم ملوكُ مُفتحة عيـوئهم نيامُ

كما قال في معنى مقارب في صدر قصيدة يمدح بها عربياً كان قاضياً في أنطاكية. (82)

وإنما نحنُ في جيل سواسيةٍ وشَرَّ علي الحرمين سُقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلقٌ تُخطي إذا جئت في استقهامها بمن
ولا أعاشرُ من أملاكهم أحداً إلا أحق بضرب الرأس من وثن
إنني لأعذرهم مما أعنتهم حتى أعنف نفسي فيهم وإني

وهذه الثورة العنيفة على حكام عصره كانت - كما ذكرت - مطالع قصائد المدح، وذلك يعني أن الرغبة في الانتقاد من أجل التغيير كانت أهمّ عنده من تدييح النعوت الظنانية، والأوصاف الخداعة التي يرضي بها غرور ممدوحيه، وهو بذلك كأنما يضع للأمراء العرب ملامح الثورة، وأدوات تنقيتها، وأنه لذلك لم يتوان عن جلد نفسه ببيع شعره في سوق الكساد مع أن زمنه يحته حثاً على معاقرة المنايا وقيادة الخيول، وحمل الرماح ليسفك بها دماء المتقاعسين من بدو وحضر، يقول في صدر قصيدة مدح بها عربياً (83)

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مُشرفة الهوادي
زعيماً للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي
إلى كم ذا التُخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

وزادت حدّة المتنبي اشتعالاً على الأعاجم بعد أن خاب مسعاه في كافر فهو لم يكتف بسلق هذا الامير (الأسود) بلسانه الحادّ، بل صبّ غضبه العنيف على الأعاجم وعلى المصريين جميعاً لأنهم رضوا أن يأكل خيرات بلادهم الوفيرة، أولئك العبيد الطعام، فيقول: (84)

نامت نواطير مصر عن تعالبيها فقد تشمن وما تقنى العناقيدُ
العبدُ ليس لحُرّ صالحٍ بأخ له أن في ثياب الحرّ مولود

(81) نفسه، (ص96)

(82) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 79)

(83) نفسه، (ص 456)

(84) نفسه، (ص 549)

وقوله في أخرى مشدداً النكير على المصريين وحدهم الذين ارتضوا أن يسوسهم عبد كان الأولى بهم أن يقتلوه، بل على المسلمين جميعهم؛ لأنّ حالهم كحال المصريين في الرضا بالمظهر دون الجوهر فجوهر الإسلام يحثّ على العزة، ويأنف من الخنوع، فيقول: (85)

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبدُ القزمُ
أغايَةُ الدين أن تحفوا شواريكم يا أمة ضحكت من جهلها الامم
ألا فتى يورد الهنديّ هامته كيما تزول شكوكُ الناس والتهم

وفي خضم كل تلك الأحداث وسقوط القيم. أخذ يبحث عن بطل عربيّ منقذ تتحقق على يديه الآمال، وتلجأ إليه العروبة في محنتها ووجد سيف الدولة فارس بني حمدان يحقق الغاية، وينعش الأمل، ويؤكد عروبتة. " فلقد وجد في سيف الدولة الأمير الذي ينشده، ورأى الأمير في المتنبي فتى ألبياً جديراً بصداقته وشاعراً مجيداً خليفاً بتخايد بطولاته وانتصاراته، فكان يصحبه في حلّه وترحالته، وكان يفضلته على الشعراء كافة، فاستطاع أن يحتلّ الصدارة، وينتزع من الشعراء لواء الإمارة" (86) فيقول: (87)

ليس إلاك يا عليّ همامٌ سيفه دون عرضه مسلولٌ
كيف لا يأمن العراقُ ومصراً وسراياك دونها والخيول
لو تحرّفت عن طريق الأعداي ربط السدرُ خيلهم والنخيل
ودرى من أعزّه الدفع عنه فيهما أنه الحقيّر الذليل
أنت طول الحياة للروم غازٍ فمتى الوعدُ أن يكون القُفول
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبيك تميل
قعد الناس كلهم عن مساعيـ ك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تُدار المنايا كالذي عنده تدار الشمول

فعلاقة المتنبي بالبطل العربي سيف الدولة علاقة حبّ وإعجاب بمثل نادر للبطولة العربية في حقبة افتقدت فيها معاني البطولة ورجالها، فيجد الشاعر في انتصاراته نصراً للأمة، كما تجد الأمة في ظله شيئاً من العزّ والأمن والكرامة فهو يعبر عن مشاعر حب صادق للأمير الحمداني، ويشفق ويقلق عليه لما يحتمل من عبء كما يدرك بإحساسه السياسي وشعوره العربي أنّ الأرض العربية معرضة للانتهاك، فليس هناك من يحميها غير سيف الدولة، أمّا الحكام الأجانب فهم غير حريصين وغير قادرين ويشعر بالخطر المحقق الذي يستهدف القائد العربي الذي لولاه لتقدّمت جيوش الغزاة متوغلة في أرض العرب، ويشير إلى صعوبة الحال، ويلجّ على القائد العربي بالعودة، ويذكره بأن أعداءه ليسوا الروم فقط، وإنما هناك روم آخرون خلف ظهر القائد مشيراً إلى الأعاجم ودسائسهم وحقدهم على أمة العرب، والمتنبي يعبر عن حرصه وقلقه على هذا القائد العربي الشجاع، كما يبدو في قوله: (88)

أما الخلفة من مشفق على سيف دولتها الفاصل
يقعد عداها بلا ضارب ويسري إليهم بلا حامل

(85) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص544)
(86) نظر: عبد الجابر سعود، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، (ص69)
(87) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص171)
(88) نفسه، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص253)

فلقد سيطر على هذين البيتين إحساس حزين وعميق بخيبة الأمل خصوصاً عندما ينظر إلى من حول سيف الدولة، ويجده الوحيد الذي يقاوم الهجمات، ويقف صامداً أمام حملاتهم لوقاية الذات العربية من أن يصيبها أذى أو ضرر " هكذا كان المتنبي عربياً خالصاً في قيمه ومثاليته، وفي لغته وكلامه، ولقد كان في هذا الواقع نشداناً منه للذات العربية التي ضاعت أو كادت أن تضيع في عصره.⁽⁸⁹⁾

الخاتمة:

وخلاصة القول هي أن المتنبي وجد نفسه في مصر مقيداً ببيئة ذات طابع مختلف عن البيئة الحلبية، تحتم عليه أن يتكيف مع واقع اجتماعي لمجتمع يضجّ بكثير من القيم والأعراف والعادات والتقاليد التي لا عهد له بمثل لها في مجتمع حلب الذي ألفه وعشقه، كما واجه ظروفًا اضطرته إلى أن يقبل ويجاري أموراً لم يكن ليقبل بأقلها وهو عند سيف الدولة، وليجد نفسه في نهاية المطاف قيد إقامة جبرية عند ملك لا يحبه، ولم تحدث مدائحه المموهة فيه ما يحمله على تقبله كما بدا له تلاشي الأمل الذي حمله على قصده، ووطن نفسه مكرهاً على مدحه وظلّ صابراً على قلق لا يهدأ إلاّ عندما يلوح له بريق أمل يوهمه بقرب حصول مبتغاه، لينتسكس في غم جديد لما يراه من دهاء كافور ومكره، ويحسّ بالحسرة على فراقه لسيف الدولة، وفي هذه البيئة المصرية المشحونة بكل ما هو غير مألوف ولا مرغوب من قبل المتنبي أخذ الشعور بالغربة يقوى في نفسه، وسيطر على تفكيره حتى بدا من خلال أشعار تلك الحقبة أنه يعاني من الشعور بغريبتين، أولاهما: غربة عن الديار والأهل والأحبة وعمّا كان يساوره من الحنين إلى أميره العربي سيف الدولة الذي أحبه وعاش أجمل سني عمره بصحبته، ويزداد ألمه حين يرى نفسه بين يدي عبد أسود خصي غير عربي، لكنه سرعان ما يتصالح مع قراره بالرحيل عن أميره المحبوب انتصاراً لكبريائه الجريح حين يتذكر ما تعرّضت له كرامته من امتهان على مرأى ومسمع منه.

أما الغربة الثانية فتتمثل في غربته الروحية عن حوله والتي كان يحسّ بها في داخله إحساساً يشعره بالتمزّق في كثير من الأحيان، فظلّ على حال من الاضطراب والقلق غير أبيه لأي عطاء يحول بينه وبين التمرد والانقلاب على الأوضاع المتردية باذلاً كلّ ما في وسعه لتحقيق طموحاته التي تصوّر له أحقيته بمجلس كمجلس سيف الدولة. وجمالاً فقد كان شعر المتنبي صورة صادقة لعصره، ومرآة للحوادث والمحن في أيامه، وما من شك أنّ السياسة والعروبة المتأصلة في فؤاده، والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر، وعبر به عن رايه ومذهبه، خلجات نفسه.

فيعبر فنّه العظيم عن صراعه المأساوي في لوحات خالدة هي قطع من نفسه وخواطره، وهي صورة لكل ما يعتمل في هذه الحياة المضطربة وما يؤثر فيها على النفس الإنسانية، كانت ذاته دوماً نقطة الانطلاق، ولكنه لم يحصر نفسه في دائرة الذات الضيقة وإنما انطلق من عقال الذات ليعبر عن كل ما حوله من مشكلات عصره وآلام أُمته ومعاناة قومه، فكانت نفسه مرآة تعكس أحداث العصر والبيئة والواقع والحياة، وتصور تطلعاته نحو الأمثل وطموحه اللامحدود نحو الأسمى، وكان يرسم في ذلك كله مذهباً خاصاً له في الحياة، خطوطه من قسّمات شخصيته وألوانه من حياته، وظلاله من نفسيته، وكانت تجربته دائماً هي الإطار الشامل لكل ما يتحدث عنه أو يخوض فيه، وكانت العوامل والمؤثرات التي أحاطت به في حياته وعملت على التأثير في شخصيته روافد مدّت تجربته بالغنى والثراء وعمّقت إحساسه بالوجود، وحددت نظرته للناس والأشياء وساهمت في وضع أسس متينة وقواعد ثابتة لمذهب جديد في الشعر العربي، يربط الفنّ بالتجربة، ويجعل

(89) العشماوي، أيمن، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، (ص76)

التعبير الفني جزءاً من نفسية الفنان، وصدى آلامه وآماله، فكانت لبيئة المتنبي وعصره وأحداث حياته أثر كبير على نتاجه الفني، ورسم مذهبه في الحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم، نوال (2008م)، *المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي*، ط1، عمان، دار جرير للنشر.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد عز الدين الجزري (630هـ)، *الكامل في التاريخ*، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ - 1987م
- أدهم، علي، (1988م) هل كان المتنبي متدينا (مقال) ضمن كتاب *أبو الطيب المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس*، ط2، بغداد، مكتبة النهضة.
- أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر، (2002 م) *موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)*، ط1، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، (د.ت)
- أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر، (1979م) *مقدمة للشعر العربي*، ط3، بيروت، دار العودة.
- أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر، (1982م) *الثابت والمتحول تأصيل وأصول*، ط3، بيروت، دار العودة.
- الأزهري، محمد بن أحمد الهروي (370هـ)، (2001م) *تهذيب اللغة*، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أورنة، سماح عدنان، (د.ت) *التلقي الجمالي في النقد العربي القديم شعر المتنبي نموذجاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين*، (د.ط)، (د.م).
- البغدادي، أبو بكر أحمد (ت 463هـ) *تاريخ بغداد أو مدينة السلام*، (د.ط)، بيروت، لبنان، (د.ت)
- ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن (ت 874هـ)، (د.ط) *النجوم الزاهرة*، مصر، دار الكتب، (د.ت)، (د.م)
- التونجي، محمد، *المتنبي مالى الدنيا وشاغل الناس*، (2008م) (د.ط)، القاهرة، عالم الكتب للطباعة والنشر.
- 12 الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (1979م) *بتيمة الدهر في محاسن أهل العصر*، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- جرار، صلاح، () *المثقف والتغيير " قراءات في المشهد الثقافي المعاصر "*، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر
- ابن جني، (د.ت) *شرح ديوان المتنبي المسمى الفسر*، تحقيق: رضا رجب، (د.ط)، دمشق، دار الينايبع.
- الجنيدى، إنعام، (1992م) *المتنبي والثورة*، (د.ط) بيروت، دار الفكر العربي.
- الجواهري، ابو نصر اسماعيل بن حماد (393هـ) (1990م) ، *تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق: محمد زكريا يوسف*، ط4، بيروت، دار العلم للملايين.
- حسين طه، (1937م) ، *مع المتنبي*، (د.ط)، القاهرة، دار المعارف.
- خفاجي، هادي، (1990م)، *سنوات ضائعة من حياة المتنبي*، ط1، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت 681هـ) (2005م)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق : إحسان عباس، ط4، بيروت، دار صادر.
- الزهراني، جمعة بنت سفر سعيد، (د.ت)، *الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح*، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية.
- السامرائي، فيصل، (1970م) *الدولة الحمدانية في الموصل وحلب*، ط1، بغداد، مطبعة الإيمان.
- سعيد ادوارد (1991م)، *صور المثقف - محاضرات ريث سنة (1993)*، نقله إلى العربية: غسان غصن، راجعته منى أنيس، (د.ط)، بيروت، دار النهار للنشر والتوزيع.
- سلطان، منير (2007م)، *الصورة الفنية في شعر المتنبي (التشبيه)*، د.ط، الاسكندرية، منشأة المعارف.
- شكري، غالي (1982م)، *شعرنا الحديث إلى أين؟*، ط2، بيروت، دار العودة.

- الشيخ، حفظة صالح ناصر (1991م)، معنى المعنى عند أبي الطيب بين السيفيات والكافوريات، (د.ط) الأردن، الجامعة الأردنية. صبري، شفيق (1979م)، حياة المتنبي ممزوجة بالدم (مقال) ضمن كتاب: أبو الطيب المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس، د.ط، بغداد، دار الحرية للطباعة.
- 27الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (764هـ)(د.ت)، الوافي بالوفيات تحقيق: أحمد الأرنؤوط وزكي مصطفى، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ضيف، شوقي(د.ت)، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط6، مصر، دار المعارف.
- ضيف، شوقي(1973م)، العصر العباسي الثاني، ط8، القاهرة، دار المعارف.
- عارف الحسن، نهى(2008م)، المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية، ط2، بيروت، دار العلم للملايين.
- عبد الجابر، سعود محمود (1981م)، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة،
- عبد الله، صلاح مصيلحي علي(1991م)، التقليد والتجديد في الشعر العباسي،(د.ط) دار المعرفة الجامعية.
- عزام، عبد الوهاب (2003م)، نكزى أبي الطيب بعد الف عام، ط1، القاهرة، شركة نوابغ الفكر.
- العشماوي، أيمن زكي(1983م)، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو علي القالي، اسماعيل بن القاسم البغدادي، (ت356هـ) (1978م)، الأمالي في لغة العرب (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الدمشقي، (1089هـ)(1406هـ)، شذرات الذهب، تحقيق عبد القادير الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، ط1، دمشق، دار ابن كثير.
- عمرو بن كلثوم (390ق.م)(1991م) الديوان، جمعة وحققه وشرحه، إميل يعقوب، بيروت، (د.ط) بيروت، دار الكتاب العربي.
- عوض ، ابراهيم (د.ت)، لغة المتنبي (دراسة تحليلية)، (د.ط)، القاهرة، مطبعة الشباب الحر ومكتبتها.
- العيسى، مصطفى(2000م)، اثر المتنبي في أعلام الشعر الأندلسي، رسالة دكتوراة، جامعة حلب.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا (ت 395هـ)(1970م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، د.ط، بيروت، دار الفكر.
- القلماوي، سهير(1972م)، هل نبعت المتنبي، مجلة الشعر، ع1، القاهرة.
- الكركي، خالد (1990)، أوراق عربية، (د.ط)، عمان، مكتبة الرأي المؤسسة الصحفية الأردنية.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (711هـ)(1956م)، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.
- نافع، عبد الفتاح صالح(1983م)، لغة الحب في شعر المتنبي، ط1، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع.
- اليازجي، ناصيف(د.ت)، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، صوب نصوصه وضبطها وقدم له، عمر فاروق الطباع، (د.ط)، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.
- اليافي، نعيم (2000م)، مرابيا المتخالف، مقاربات نقدية في الفكر العربي المعاصر، ط1، حلب، مركز الإنماء الحضاري.